الطريق إلى البصرة

الزبير - زبير وان - خور الزبير : مدن ما بعد المتاهة !

قبل فتح قناة السويس كانت الزبير ملتقى الشرق والغرب

هناك جملة (احتياجات ساخرة)، كثيراً ما يرددها البصري وهو يقايض سائقاً لاستئجار سيارته داخل مدينة البصرة: إلى أين ستذهب بنا، إلى الزبير؟!.. وثمة شائعة بصرية أزلية، تحوم دائماً حول أي نجم خليجي يشتهر في ميدان ما، وهي: إنه بصراوي.. أصله من الزبير!؟ هاتان الجملتان (البصريتان جداً) تشخصان بدقة واضحة بعد وعزلة الزبير عن البصرة أولاً، وخليجيته الظاهرة والباطنة ثانياً!.

عبد الكريم العبيدي

ففي العشار، وجه البصرة الأول، تحبسك البصرة بأقدم وجوها، ولكنك ستفارقه بعد أكثر من ساعة وأنت تتجه غرباً إلى الزبير.. لن ترى امتدادات للبصرة، لا أحياء سكنية ولا مصانع ولا مؤسسات، ستصبح البصرة بلا وجه، بل سيختفي رمزها الأول، شجرة النخيل، وستجد نفسك في طريق صحراوي طويل وسط الرمال والعواصف، تجلس صامتاً وسط ركاب يرتدون الدشاديش البيض، وينتعلون نعال الجلد الزبيري، ويعتمرون الكوفيات البيض والعقال الزبيري القديم!

وحالما تلمح النيران المشتعلة - وجه البصرة الجديد - بعد رحلة المتاهة تلك، ستعرف أن ليس للبصرة وجه واحد لتراه وتستريح!! بل عليك، قبل أن تفلت من كراج الزبير في العشار، أن تتهيأ بالفرض لاستضافة عزلة الزبير الأولى.. فهي قصبة (رملية)، تجددت منذ نشوئها على أنقاض البصرة القديمة عن أي حالة اقتراب او تشابه توحدها، أو تجبر زوارها في الأقل، أن لا يشعروا أنهم في متاهة قاسية تفصل بين حياتين بصريتين في بصرة واحدة!، وانهم أمام وجه بصري (رملي ونفطي) تعدى خريطة عزلته الأولى، ليمضي قدماً في انقطاعات متتالية عن حقيقة نشأته الأولى!

فالزبير، مدينة أمس).. وثمة انطفاء واضح في تدحرجها الزمني، يشير إلى انطفاءات متعاقبة، أسست عزلة فاصلة حقيقية تنم عن سلسلة انقطاعات غامضة ومتعاقبة أيضاً!

وما دامت العزلة، الأولى تهبني حق التوغل فيها، فقد قررت، بعد دقائق ثقال، إن امط حدود تلك العزلة إلى النقطة التي تتلاشى فيها، أو تتوضح بأقصى ما يمكنها أن تتميز في ظهورها المفترض، الغريب في وحدة منفردة تعيش في وسط بياض تام يفصلها عن كل ما هو خارجها..

ولكن، (ولحسن الحظ) فان كل شيء ليس قابلاً للقراءة والتأويل، ولا أقدر أن أميز بوضوح معقول هذه الصلة - اللاصلة - بين اي منهما.. إلا انني استطعت أن اشعر بوجودهما، أن اتحسسهما، واشعر اني قريب منهما فقط. فالزبير، التي تعزلها الصحراء، والعواصف والرمل عن مدينتها الأم، عزلت هي الاخرى نفسها عن اسباب وجودها كنقطة التقاء تجاري بين البصرة ومناطق الجزيرة العربية جنوباً، وبين البصرة ومدن الشام شمالاً، ثم تحولت، في بدايات القرن الماضي إلى (بئر نفطية ضخمة)، ثم إلى مدينة أو مدن نفطية طارئة، تشكلت حول مؤسسات النفط ومنتوجاته، وصارت (الزبير) والطريق اليها، حالة جديدة، فرضتها حياة ما بعد اكتشاف النفط واحتكار استخراجه وتصنيع مشتقاته من قبل الاحتلال الانكليزي وشركاته، التي (البست) الزبير ابعاداً ستراتيجية جديدة، واحاطته بمدن واحياء سكنية عديدة، سميت باسمه، وسرعان ما نهجت ذات خصوصيته وطقوس اهله، ثم توحدت في تشكيل جديد، كمدن نفطية صحراوية في غربي وجنوب غربي البصرة.

النواة الأولى

ولكن كيف نشأت مدينة الزبير أولاً؟.. كيف تحول قبر الصحابي (الزبير بن العوام) إلى ضريح تحيط به احياء مدينة سميت باسمه، وأخذت في التوسع والعمران، حتى غدت مدينة نفط في عمق الصحراء؟

يقول السيد يوسف ناصر العلي، احد مؤرخي البصرة المعاصرين: تأسست مدينة الزبير على أنقاض البصرة القديمة، وشغلت محلة المربد القديمة، فقد سكنتها بعض القبائل العربية، بعد ارتحال أهل البصرة في حوالي عام ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م إلى ارض البصرة (الجديدة)، إذ فضلت هذه القبائل البقاء في مثوى أجدادهم فسكنوا قرب قبر (الزبير)، وكونوا النواة الأولى لهذه المدينة، التي عرفت فيما بعد باسم محلة الكوت، واشهر هذه القبائل هي قبيلة عقيل بن عامر، وبنو هلال - عائلة من تميم - وغيرها، وسرعان ما ازداد عددهم بعد ترميم (القبر) بأمر من السلطان سليمان القانوني عام ٩٧٩ هـ - ١٥٧١، فكان هذا مشجعاً لزيادة عدد سكان الزبير، خاصة بعد امتهانهم التجارة بين البصرة ومناطق الجزيرة العربية، مما استقطب أعدادا كثيرة من النجديين بسبب انتشار القحط، أو هروباً من الحروب الداخلية، فنزلت من نجد عام ١٠٠٣ هـ / ١٥٩٤م وأسسوا مسجد النجادة.

ثم توالت الهجرات عام ١٠٦٥هـ، وفي عام ١١٣٥هـ / ١٧٢٢م نزلت مجموعة كبيرة من سكان سدير النجدية، على أن أعظم الهجرات النجدية إلى البصرة عامة وإلى الزبير خاصة، تلك التي رافقت قيام الدولة السعودية وانهيار دولة آل الرشيد في حائل.

أما في أوائل القرن الماضي، فقد نزلت الزبير قبائل من الإحساء والعمارة والناصرية.

الزبير قديماً

الزبير بحكم موقعها المهم، أصبحت نقطة التقاء بين الشرق والغرب، وقبل فتح قناة السويس، كانت مركزاً تجارياً مهماً، ونقطة انطلاق القوافل التجارية، مما وسع أسواقها واكسبها شهرة، وجعل اهلها يمتهنون التجارة ويصبحون ادلاء للقوافل التجارية والسياح الأجانب.

كانت التجارة العالمية تبدأ من الهند والصين، وتصل بحراً إلى ميناء البصرة، ثم تحمل براً إلى حلب فالساحل السوري على البحر الابيض المتوسط، ثم توصل سيرها بحراً إلى اوروبا، لذلك تنوعت اسواق الزبير وازدهرت بمختلف البضائع. ويقرب لنا هذه الحقيقة خورشيد افندي التركي في عام ١٨٥١ بقوله: (يصل لمدينة الزبير تجار من مصر ودمشق وحلب للبيع والشراء).. أما الليدي دراور، في عام ١٩١٩، فقد كتبت عن اسواق الزبير قائلة (إنها نظيفة، جذابة، وقد نعثر فيها على سجادة فاخرة أو قطعة قديمة من نحاس، جاء بها احد المسافرين).

اسواق الزبير القديمة

في الزبير اسواق عديدة منها، سوق الحزم، ويقع قرب بوابة الحزم احدى بوابات سور الزبير المسمى سور (ذاري) الذي بني في عام ١١٧٧هـ / ١٧٦٣م، وتقع هذه البوابة صوب القبلة، في القسم الغربي من الزبير. وقد خصصت لبيع منتجات البدو، وحزم الحطب الذي يجلب من البادية لبيعه على سكان الزبير، بسبب قلة الاشجار والنخيل فيها، وقد عرف هذا السوق ايضاً بسوق الصفا، اذ تباع به المواشي على اختلاف انواعها مثل الجمال والغنم والماعز.

واشهر حادثة حصلت في هذا السوق في عام ١٢٤٩هـ / ١٨٣٣م عندما قتل شخصان من اعوان شيخ المنتفق عيسى بن محمد السعدون، ما ادى إلى قيامه بحصار (الزبير) واقتحامها، ثم الانتقام من آل الزهير، امراء الزبير في تلك الفترة.

كما اشتهر في الزبير سوق الجت، ويقع شرق مرقد الزبير، ولا يزال معروفاً بهذا الاسم، وكان مخصصاً لبيع الجت الذي كان يجلبه فلاحو البصرة وابي الخصيب، ثم توسع هذا السوق وبني مسجد، عرف بمسجد (الجت).

أما اول سوق بني في الزبير فيدعى قيصرية الفداغ، وتنسب لآل فداغ، شيدت في اواخر القرن السابع عشر، وتباع فيه البسط والمنسوجات، وقد توسع هذا السوق ليصبح سوقاً رئيسة، ويقع جنوب قبر الزبير، واليها اشار لوريمر في عام ١٩٠٧ عندما قال (يوجد في المدينة سوق كبير مسقوف، معظمه مبني بالحجر)، كذلك قال الشيخلي عام ١٩٠٦:) سقوف السوق كلها عقائد وقباب).

ومن اسواق الزبير الأخرى سوق المزروع، وسوق اللحم، وسوق القرية.

الزبير مدينة (صناعية)!

اشتهرت مدينة الزبير قديماً بصناعة المنسوجات والسجاد والخيم وكذلك بالصناعات الجلدية مثل صناعة النعال الزبيري ولها عمال حاذقون في هذه الصناعة، وفي غاية الجودة من الخرازة والتطعيم والتلوين ويتم تصديرها إلى البصرة القديمة والمدن الخليجية الاخرى.

كذلك تشمل الصناعات الجلدية صناعة الرحال والقرب التي لاقت رواجاً كبيراً بسبب كثرة استخدامها داخل البيوت وتزويد القوافل التجارية.

ومن الصناعات الاخرى التي اشتهرت بها الزبير قديماً صناعة البشوت الزبيرية المشهورة على نطاق واسع، وتصنع من الصوف او الوبر، وقد اشارت الليدي دراو ١٩١٩ إلى ذلك بقولها (إن كميات لا حد لها من العباءات المخططة المصنوعة من وبر الإبل، ومن النوع الذي يرتديه البدو في الأغلب الأعم، وكذلك الكوفيات والعقل المصنوعة من حبال وبرية ايضا).

وثمة صناعة العقال الزبيرية التي اشتهرت بها الزبير وبخاصة عقال الزبير المقصب المصنوع من صوف الغنم، ويقسم إلى اربع قصبات طولها ٧ سنتمترات وتطوى بالحرير الابيض، وتطعم بألوان مختلفة، كذلك عرف نوع آخر من العقل هو (عقال الكسر) وهو اسود يصنع من شعر الماعز، وهو الأكبر شيوعاً بين العامة، في حين انتشر العقال المقصب بين الاثرياء فقط.

أما اول مدبغة لدبغ الجلود فهي التي انشأها الحاج حمود المحمود عام ١٩٢٠ وتستخدم مواد الجلود المحلية.

ومن الصناعات الاخرى صناعة طحن الحبوب (يدوياً) وفي عام ١٩٢٥ قام عبد الله السويدان وشركاؤه بنصب اول مطحنة في الزبير، وقيل هي مطحنة راشد المذن في محلة البراحة.

كما اشتهرت الزبير بصناعة الجص حيث اصبحت الممول الأول في البصرة وكذلك صناعة طحن الصخر (والصلبوخ) - الحصى، اضافة للنجارة وصناعة الحديد وصناعة القدور الصفر وشباك الصيد والاصباغ والراشي..

اقدم منارة اسلامية!

في الطريق الصحراوي إلى الزبير، تشاهد جامع ومرقد طلحة بن عبيد الله شاخصاً لوحده في وسط الصحراء وعندما تقترب السيارة من جامع الامام علي، ترى بقايا منارة اسلامية، وبعد انتهاء رحلة المتاهة، تظهر الزبير باحيائها القديمة وشوارعها المزدحمة. تجولت في سوق البنات وسوق العورة وسوق سوادي، ووصلت بصعوبة إلى جامع ومرقد الزبير بن العوام.. كان غارقاً في البسطات والجنابر، واصوات الباعة وحوارات السابلة!

يقول علاء جبار أحد سكنة الزبير: مدينتي مدينة الجوامع، وفيها مراقد انس بن مالك وطلحة والزبير والحسن البصري، وفيها اكبر مقبرة في البصرة وهي مقبرة الحسن البصري وتضم قبري الشاعرين البصريين الكبيرين بدر شاكر السياب ومحمود البريكان.

وكانت الزبير نقطة التقاء الشرق بالغرب، واشتهرت بانواع النقوش العربية والاسلامية وفنون الريازة).

مندوب جريدتنا في البصرة اكد لي إن كل هذه الرموز والمعالم التراثية المهمة انقرضت، وزحفت عليها المباني والاحياء الحديثة!

(الزبير) الآن مجموعة من الاحياء الشعبية، اشهرها العرب -الصنجة الدريهمية - الرشيدية - الظهيرات والحي العسكري!

أما اول من زارها من الرحالة وكتب عنها فهم، البرتغالي تزيرا عام ١٥٢٣ وتكسر عام ١٦٠٤، وبلاستد عام ١٧٥٠، وجيمس كابر عام ١٧٨٣.

الزبير في (عيونهم)

وصف الرحالة الالماني عام ١٧٦٥ مدينة الزبير وذكر خرائب البصرة القديمة وجامعها الكبير ومراقد طلحة والزبير والحسن البصري ومسجد النجادة، كما ذكر أن (الزبير) يرقد تحت قبة كبيرة وجامع جميل ذي منارة واحدة.

أما الرحالة البريطاني تايلر عام ١٧٩٠ فقال (سرنا باتجاه الشرق، حتى بدت لنا اسوار الزبير التي طالما اشتقنا إليها، وكانت ابوابها واطئة جداً، بحيث لايدخل فيها الجمل المحمل).. ووصف ترحيب اهلها بالغرباء وكرمهم فقال: (لقد هرع الرجال والصبيان باتجاهنا، معبرين عن حبهم باجمل علامات الشوق والود، ولم اشاهد في حياتي قط تعبيراً عن الفرح، اكثر اخلاصاً وحرارة مما رأيته هناك.. إن منظراً كهذا، كان جديداً على اشخاص اوربيين (لقنوا) منذ نعومة اظفارهم أن العرب شعب متآخر، فلقد بدا الواقع عكس ذلك، وكان المنظر مؤثراً للغاية)!

أما كارمايكل عام ١٧٥١ فقال إنها مدينة عربية صغيرة، بيوتها مبنية من الطين، وعدد سكانها يتراوح بين ٦٠٠ إلى ٧٠٠ شخص.

وقال عنها خورشيد افندي التركي (إن عدد بيوت القصبة تبلغ ٢٠٠٠ بيت مع سوق وخان واحد، وجامعين، واضاف (ماؤها جيد)!!، وهي محاطة بسور، وبها نوع من الحمير البيض الجيدة، الغالية (الثمن)! أما المؤرخ لوريمر فذكر في عام ١٩٠٧: (أن اهم شيء يقع خارج المدينة هو ضريح الحسن البصري، على بعد نصف ميل من البوابة الغربية، وداخل الاسوار يوجد ضريحا طلحة والزبير المميز بمئذنة زرقاء يبلغ ارتفاعها ٤٠ قدماً، وهي الآن مهدمة، آيلة للسقوط! ويوجد بالمدينة سوق كبير مسقوف معظمه من الحجر، وكذلك المساكن المشيدة من الحجارة (المجففة)، ويقدر عدد سكانها بنحو ٦٠٠٠ شخص.

واشارت (سالنامة) البصرة (وهي مطبوع رسمي تعريفي كانت تصدره جميع الولايات التابعة للدولة العثمانية وفيها ولايات العراق الثلاث بغداد والبصرة والموصل) عام ١٣٠٩هـ / ١٨٩١م، إن الزبير مبنية من الحجارة واللبن، قسم من اهلها اصحاب املاك، وآخر يعيش على زراعة البقول، والباقي (حمّاره) وتحتوي الزبير على (١٥) جامعاً، وسوقاً وعلى (٢٠٠) حانوت (وسبع مدارس) وعشرين مكتباً للصبيان، ونفوسها زهاء اربع آلاف أو خمس آلاف نسمة تقريباً، والقصبة محاطة بسور وتشمل الفين ومئتي دار (٢٢٠٠).

الزبير، مدينة الصقور!

تقول الباحثة الاجتماعية الليدي دراور عام ١٩١٩ عن الزبير (لن تجد فيها ابواباً مزخرفة او شبابيك يلهو الناس بها، وكل ما هناك جدران بسيطة من الرهص وقد صفقته الشمس، إنها خدر الحياة التي تصرف عنها عين كل غريب، أما اشكالها، فاما مربعة او ساذجة وقد تتلألأ هنا وهناك كاشية زرقاء على باب جامع.

ولاهل الزبير ميسم هو الجد والصرامة وإلاباء!)

وقد ذكرت اسواق الزبير، ووصفتها وصفاً شيقاً، وذكرت من بين الهوايات الزبيرية تربية الصقور للصيد والاعتناء بها!)

مدارس وكتاتيب

يقول ميرزا حسن خان في عام ١٩٠٦: (يكثر في الزبير الشمام في الربيع والخريف، وبطيخها حلو جداً ولذيذ الطعم ومشهور ويظهر في صحرائها كماً كثيراً!)

ويضيف (ابنيتها في الغالب مصنوعة من الحجارة والجص، حيث يصنع الجص فيها بكثرة.

كما ذكر مساجدها البالغة خمسة عشر مسجداً، ومدارسها البالغة سبع كتاتيب ومدرسة ابتدائية واحدة، والف وخمسمئة منزل، وسكانها، تخميناً ستة آلاف شخص، وفيها قبور بعض مشاهير الاسلام!!

(آدموف)، القنصل الروسي في البصرة عام ١٩١٢ وصف الزبير وحياة اهلها وتجارتهم فقال (عدد سكان الزبير يبلغ ست آلاف نسمة، اغلبهم من الموسرين بسبب الكسب الكبير الذي يجنونه من (تهريب) البضائع!، واضاف (يبدو، كما لو أن موقع الزبير يشجع سكانها على هذا العمل!

واشار إلى (ان الزبير تكتسب اهميتها من وجود ضريحي الصحابيين طلحة والزبير)!

*جميع المعلومات التاريخية تفضل بها السيد يوسف ناصر العلي أحد مؤرخي البصرة المعروفين، واستقاها من بطون الكتب التاريخية القديمة ومن مجموعة كبيرة من الوثائق الرسمية التاريخية.

زبير الحروب الصدامية

في آخر عقدين من القرن الماضي، حول صدام مدينة الزبير إلى ساحة حرب، واعتبر الكثير من مناطقها السياحية محرمة، بعدما ملأها بالمعسكرات التدريبية ومخازن العتاد والمشاجب والمعسكرات الخلفية والسجون لكثير من الفرق والألوية والقوات المتجحفلة معها!

وباتت الزبير وشوارعها وساحاتها مليئة بالدبابات والعربات والجنود والمضادات الارضية، ففقدت المدينة تاريخها وتراثها، وأمست بجرائم صدام مدينة عسكرية مليئة بالمخبرين ورجال الامن والانضباط العسكري!

كما أمر صدام بمنع السفرات السياحية التي كانت تقوم بها مدارس البصرة الابتدائية والمتوسطة والثانوية إلى مناطق الاثل والبرجسية والرملية وخور الزبير، وبذلك جفت حركة السياحة في المدينة ثم ماتت!.. لم يبق زائر واحد من داخل البصرة أو خارجها راغباً بزيارة مدينة الزبير واضرحة الاولياء بسبب كثرة السيطرات والارتال العسكرية الكثيرة، وبسبب انتشار الجنود في جميع اسواق وساحات المدينة، فيما اقتصرت حركة السير على سيارات الاجرة التي كانت تنقل الجنود البؤساء من وإلى الزبير، أو أسر الجنود المحبوسين في سجون الفرق المنتشرة هناك!، حيث يسمح لهم بزيارة ابنائهم وتزويدهم بوجبات الطعام والمال والملابس والبطانيات والادوية!

وفي جحور الدريهمية وغرف معسكراتها البائسة المصنوعة من الجينكو كانت تدور اكبر صورة للبؤس والحرمان والذل لجنود يحرقون الاعوام من اعمارهم، ويلاقون كل صنوف العذاب، من جوع وعطش وامراض وغربة في حر الزبير القاتل، وفي شتائه الشديد البرودة!

من وجه آخر

بعد خروجي من الزبير، عدت إلى قسوة المتاهة، في ذلك الطريق الصحراوي المقيت الذي بدأ يزحف عليه الظلام، ليزيده وحشة وغربة.

الزبير، مدينة الأمس تجرني إلى ايام الفتنة الكبرى، وبحر الدم، وايام حرب (الجمل)، ومصرع آلاف المسلمين في تلك الصحراء الرملية التي تأسست عليها مدينة، اصبحت في يوم ما ملتقى الشرق والغرب، وقصبة للسياحة والتجارة والفنون، وقلعة للمعسكرات والمشاجب والمضادات الارضية.. تركت نفسي تغرق في ظلام المتاهة بانتظار اول اضواء ساحة سعد التي ستثبت لي من جديد، أن وجهاً جديداً للبصرة بدأ بالظهور!!